حوافز وعوائق ... في حياتنا الأدبية

بقلم بهيج عثمان

تحدثت في مقالي السابقين عن الناشر والقارىء والناقد ، وكيف يكون كل منهم حافزاً حين يدفع بتيار الادب الى آفاق الخصب والتوليد ، وكيف يكون كل منهم عائقاً حين يتخلى عن رسالته ، فاذا الادب لا يخرج عن فلك من فراغ وزيف واجترار .

وكنت قد وقفت قليلاً عند مشكلة تقييم النتاج الادبي ، واضطراب موازين النقد ، وتساءلت عن الحكم الاخير في التقدير ، حين تتفاوت الاراء في بيئة واحدة اختلفت مصادر ثقافتها ، وقد انكرت قيمة الكثرة العددية التي اتحد زادها الفكري ، واعتبرتها نسخاً متكررة عن اصل واحد .. غير ان الاستاذ حسين مروه ، رأى في إنكاري قيمة الكثرة العددية اذا كانت على هذا النحو ، معنى خاصاً لم يخطر لي على بال .. لانه يرى ان لكل انسان طابعه وشخصيته ، ولا بد ان يظهرا في التقدير حين يطلب اليه الحكم .

وانا لم انكر على الفرد خصائصه العقلية والعاطفية ، ولكني اصف واقعاً أدبياً ارى معالمه في ميل الجمهور وعطفه على الكتب ، وعلى بعض الخطباء والمحاضرين ، بل إن مقالاً قصيراً ، يتناول ظاهرة فكرية ، ليؤثر في القراء تأثيراً ، لا يختلف باختلاف قاريء عن قاريء ، ولكن يختلف باختلاف حزب عن حزب او فئة عن فئة ، فالتقدميون يعجبون حيث يسخط المحافظون ، ولا استطيع ان انسى موجة من التصفيق اصمت الآذان في احدى المحاضرات التي سمعتها منذ شهرين ، قد ارتفعت من زاوية من زوايا القاعة . . حتى اذا خمدت واكمل المحاضر كلامه ، ارتفعت بعد قليل موجة اخرى من التصفيق العنيف كان يثيرها هذه المرة فريق اخر من زاوية اخرى من زوايا القاعة . والفريقان من بلدة واحدة هي بيروت ، ولكنهما من بيئتين فكريتين مختلفتين .

فهل يستطيع الاستاذ حسين مروه ان يقول ان افراد هذين الفريقين كانوا يتيحون لشخصياتهم ذوات الطوابع المميزة ان تتدخل لتبني اعجابها على العقل الفردي والاجتهاد الخاص ؟ ولا احتاج ان اذكر الكتب والمقالات التي نشرت في السنوات الاخيرة ، فاغضبت فريقاً ذا لون واحد وارضت فريقاً اخر من لون اخر ، والعجيب ان افراد كل لون كانوا يتفقون في الاعجاب او النقمة .. ولكنهم يختلفون بعد ذلك في التدليل على هذا الاعجاب او تلك النقمة .. وهذه الكتب لم تكن الا آثاراً ادبية صورت جانباً من جوانب الحياة الماثلة امامنا .

●

واذا عدنا الى حديثنا عن تقرير الادب فاننا نلاحظ ان المجتمع يعبر عن تقديره ببعض المظاهر المألوفة كحفلة تقام احتفاء ، او جائزة تمنح تشجيعاً .

اما حفلات التكريم ، فعيبها انها تقام عادة للأديب لا للاثر الذي انتجه . فاحاديث الخطباء كلها تضفي على المحتفى به قلائد الثناء ، وتنسى ان تتحدث عن الكتاب ، الذي هو سبب الاحتفاء ولعلها تنسى الحديث عن الكتاب مضطرة ، لان ذلك يستدعي قراءة الكتاب !

وحفلات الذكرى اكثر عندنا من حفلات التكريم الشخصي ، اننا لا نفيق على هداتنا وروادنا ، الا بعد ان تنطفيء انوارهم . لقد اصبحت حفلات التكريم ، كبعض الاوسمة ، تقديراً للنابغ ، ودليلاً على وفاته في آن واحد !

واما الجوائز فهي ايضاً تحتاج الى تصحيح . ولن نتحدث هنا عن المحكمين واختيارهم وطريقة اختيار الفائز ، فتلك امور لا تجدي فيها ملاحظات تكتب وتردد .

لعل أكبر عيب يوجه الى الجوائز التي تعلنها مؤسساتنا انها تقيم المباراة على اساس من القوالب الادبية ، فجائزة للقصة وثانية للشعر ، وثالثة للمسرحية ، ورابعة للدراسة .. اما الموضوعات فالمتباري حر في أن يكتب عن مجتمعه او عن قضايا فلسفية ، او ان يتحدث عن المريخ ، او عن القنبلة الهيدروجينية ، او الاطباق الطائرة ، شرط ان يكون القالب واحداً : قصة او قصيدة او مسرحية . وهكذا يطلب من المميزين ان يفاضلوا بين آنسة وفتى وقرد وعمود تراموي لأنهم جميعاً قد لبسوا اثواباً من قماش واحد ! ما هو موضوع المفاضلة : هل هو الرقة ام الجمال ام القوة ام الحركة ام امتشاق القوام : ما دام الثوب من نوع واحد ؟

إن القاصين ، اذ يكتبون قصصهم ، يتفاوتون ولا ريب في الفن القصصي نفسه براعة سرد ، وجمال اسلوب ، وقوة حوار ، غير ان هذا كله لا يساوي شيئاً كثيراً ازاء المضمون ، المضمون الذي هو مدار المباراة والمفاضلة .

وهذا ما وقع فيه المميزون في مباراة قصصية حين فاضلوا بين قصة شاب قلق حائر بين مطالب مجتمعه ومطالب نفسه ، وبين قصة امير من امراء التاريخ يقضي ايامه في قصره لا يشغله من أمور الحياة الا تأخر قرية فقيرة عن دفع الضرائب له ، وقصة صراع بين راهبين حول المعرفة ، وقصة فتاة لاجئة أبت الا أن تموت من الجوع ، على ان يموت فيها الشرف .

قصص أربع لا يجمع بينها الا الفن القصصي في أبطاله وتسلسله

وحواره وطريقة تصويره وتحليله .

وقد بلغ من حيرة المحكومين وتفاوت موازينهم الى ان أحد المحكمين طلب استبعاد احدى هذه القصص من المباراة لأنها لا ترقى إلى ان تكون قصة مستوفية الشروط ، بينا طلب حكم آخر منحها الجائزة ! .

إن على من يريد تشجيع الأدب، وحفز الادباء على الابداع، ان يدفع الموهوبين إلى معالجة مشكلات ينئ منهـــا حاضرنا الاجتماعي، او خوض آفاق جديدة تزيد من ثروتنا الفكرية ، والأدباء أحرار بعد في أسلوب معالجتها، قصة كان او مسرحية او دراسة .

ما أحوجنا في سبيل نهضة ادبية جذرية، الى مباريات تقام في الموضوعات ، فتكون احداهـــا في موضوع اجتماعي ، وسائرها في موضوعات سياسية او فلسفية او علمية او ادبية خالصة .

وإلى مباريات خاصة بالفنون الأدبية يكون مدار المفاضلة فيها جودة الشعر او المسرحية او القصة .

والى مباريات خاصة بالترجمة فتحفز المترجمين الى نقل مـا ينبغي ان ينقل الى لغتنا من ثمرات العقول العالمية .

بل ما أحوجنا الى تشجيع الناشئين وتوجيههم الى الابتكار. فهم قادة مستقبلنا ، اما شيوخنا فقد تحددت طريقهم وتحجرت معالمها ، وما اكرامهم الا تتويج لجهود بذلوها . اما الناشئون ففي تشجيعهم دفـــع للادب في طريق الحياة الحرة ، هذه الحياة الحرة التي لم تستكمل بعد عناصرها في عالمنا العربي الحاضر .

ما أحوجنا اذن الى العناية بالموضوعات ، الى جـــانب الفنون ، وما أحوجنا الى تلقيح الادب بالعلم ليجاري الحياة الحديثة ، وما احوجنا الى تشجيع الناشئين لنعمل من اجل غد سعيد .

ولعل في اتجاه بعض مجلاتنا في اعدادها الخاصة ، قدوة لم تكن حميدة تماماً ، اتبعتها جمعياتنا . وقد يكون لهذه المجلات بعض العذر ، لا كله ، حين خصت اعدادها بالفنون الأدبية، لأنها لا تفاضل ، وانما تقدم للقاريء لوناً من الوان الأدب .

واذا ارادت جمعياتنا ان تدافع عن اتجاهها هذا ، معتمدة على مباريات القصة التي تقام في فرنسا مثلاً ، فينبغي لها ان لا تنسى ان الى جانب هذه المباريات غيرها لا تقوم الا على الموضوعات .

والمباراة حول موضوع محـــدد يؤدي الى اثراء الادب بكتب جديدة لم يكن من شأنها ان يجري بها قلم لولا المباراة. اما المباريات حول القوالب الأدبية فلا يزيد المكتبة العربية كتاباً واحداً ، لان المصادفة وحدها هي التي ادخلتـــه في المباراة : اليس كتابك دراسة ؟ ألم يظهر في العام الماضي ؟ اذن فأنت مشترك في المباراة على اهون سبيل !

ونسيت أن أشير ايضاً الى ان الفنون الادبية نفسها قـد اختلطت وتداخلت ، فقد تجد في القصيدة فناً قصصياً لا تجده في صفحات تحمل اسم قصة ، وقد تلقى في القصـــة من الشعر اكرمه ، ومن الدراسة اعمقها واوفرها تحليلاً .

والفنون الادبية كلها وسائل لغايات ، ومن الطبيعي ان تكون المباريات على الاهداف لا على الوسائل .

ولعل اعجب ما يلفت النظر في موضوع الفنون الادبية ان تنشأ الجمعيات حاملة اسمها وعاملة على احيائها، فثمة نادي القصة ، ورابطة الشعر ... ولا يزال الباب مفتوحـاً لاسرة المقالة وانصار السيرة ، وجماعة الحوار ! .

ان في التحلق حول الفنون الادبية صرفاً للجهود الادبية عن قضايا الفكر المعاصر ، ومشكلات عالمنا العربي ، الى ان تتلهى بالازياء الادبية دون القوام الذي يرتديها، وبالاشكال الجامدة لا بالحياة التي ينبغي أن تتحرك فيها .

فالتشجيع ، اذا احسن توجيهه ، كسب معنوي ، وان رافقته المادة ، فهو يحفز صاحبه الى الابداع والتجويـد ، كما يدفع الادب الى ميادين جديدة لم يكن يعوزها الا التقدير الحق . فمما لا ريب فيه ان رعاة الادب وانصاره كان لهم اثر كبير في بعثه وانمائه في مختلف عصور التاريخ . ولو كرموا الشعراء على ابداعهم ، لا على تملقهم لخدموا الادب وخدموا انفسهم ، ولكن سيف الدولة مـــا زال يعطي المتنبي ، سني الجوائز ، حتى رفع ابو الطيب ، يقول عمر فاخوري، الكذب الى مرتبة العبقرية !

ولم يقم ابو حيان التوحيدي للكذب شأناً، فجاع في عصر الرياء الادبي والملق المادح ، ولما اراد ان ينتقم من النـــاس الذين كفروا بصنيعه وجحدوا ادبه ، جمع كتبه وأشعل فيها النار . احرقها ليكون صادقاً مع نفسه . لا يكتب مـا يريد الناس ؛ ولا يرى بعينيه ادبه مهملاً منكراً .

ان التشجيع المحكم كسب للقوى الخالقة ، وحفز لها على مواصلة الابداع ، فلا يرتفع الكذب العبقري ، ولا يدفن الصدق الساذج ، أما ان نمنح بعض الادباء تعويضات مالية ، فانما نزيدهم كسلاً وتواكلاً ، ونهيء لهم وسائل الجمود الفكري .

ولعل أغرب ما عرفت في فهم من يريد تشجيع الادب ، ما رواه لي الاستاذ رئيف أبي اللمع وزير التربية الوطنية في لبنان سابقاً ، فقد جاءه مرة مؤلف يستعين الوزارة على نشر كتاب له. فما كان من الوزير الذي يعرف مستوى الكتاب ، الا ان قدّم له عوناً مالياً ، شرط ان يطوي كتابه عن النشر !

نساعد المتخلف عن ان يظل متخلفاً ، ولا نعمل شيئاً للذين يملكون العطاء الكثير !

●

ومن الوسائل الحديثة لاثارة النشاط الفكري ، المعاهد العالية ، والندوات الادبية ، والاذاعة ، والصحافة .

واذا كانت المعاهد الجامعية لا تملك خلق ادباء ، الا انها تملك خلق قراء ممتازين ، يكونون اذا ما تركوا الجامعة ، بيئة عقلية من شأنها ان تتجاوب مع اصداء الأدب الحديث .

فمن المعروف ان كلية الهندسة تخرج مهندسين ، وان كلية الطب تمنح لقب طبيب ، ولكن كلية الاداب لا تستطيع ان تزعم انها تخرج للأمة أدباء ، قد تجعلهم دارسين للأدب او مؤرخين له ، اما الاديب فلا يصنع على مقاعد الدراسة .

وفي الندوات الادبية مكان فسيح للاصغاء إلى نتاج الفكر ، وتقوم الندوات في لبنان بدور بعيد الاثر في توجيه المحاضرين الى موضوعات دون غيرها .. وكثيراً ما استطاعت هذه الندوات ان تجلو كثيراً من المواهب التي تراكم عليها غبار كثيف من الاهمال والكسل .

ولا ريب ان محطات الاذاعه العربية تسهم اسهاماً غير قليل في توجيه الادب ، وهي مسؤولة عن خطواتها في تشجيع بعض صنوف من الادب دون غيرها . فقد اصبح الادب مادة هامة في مناهج الاذاعة في احاديثها وجلساتها واغانيها ، وبذلك اصبح شطر كبير من الادب الذي ينتجه الكتاب اليوم أدباً مسموعاً بدلاً من ان يكون ادباً مقروءاً . والادب المسموع يفرض على قائله ان يعده اعداداً اذاعياً . وهكذا نشأ في ادبنا فن جديد من فنون النثر هو فن الحديث الاذاعي . وهو ليس خطابياً لان الخطاب يتكيء على اشارات الخطيب وحركاته التي تعبر تعبيراً مبصراً ومجسماً عن انفعالاته . وهو ليس محاضرة لأن المحاضرة لها من طولها واناتها مجال ليس للحديث ، وانما هو حديث صغير يتناول موضوعاً من موضوعات الادب على اختلافها ، ويعالجها كما تعالج المقالة القصيرة موضوعها ، الا انه يختلف عنها في ان يوسع قاريء المقالة ان يعيد المقال اذا فاته بعض غوامضه او اذا شرد ذهنه عن بعض افكاره ، وليس الامر كذلك لدى السامع الذي لا يملك ان يسترجع جملة اذا ندت عن سمعه . ومن هنا تميز الحديث المذاع بطابع الوضوح . ولعل سبب الوضوح ايضاً أن المتحدث لا يعرف سامعيه ولا يختار مستواهم العقلي ، فكاتب المقال يبعث بمقاله الى المجلة العلمية اذا كان علمياً ، والى الصحيفة السيارة اذا كان خفيفاً ، اما المتحدث فلا يختار سامعيه بل هم الذين يختارونه ، فاذا ما صاغ حديثه صياغة يسيرة قريبة المنال ، وحمله من المعاني طريفها وجميلها اكثر مما يحمله عميقها الباعث على التفكير ، كان اقرب الى ان يجذب اليه اوفر عدد من السامعين.

وتفرض الاذاعة على المتحدث قيداً يتصل بالوقت ، فهي تتيح له دقائق معدودة لا ينبغي له ان يتجاوزها ، وكثيراً ما كان لهذا القيد فضله على الاحاديث ، اذ تركزت حول محور تدور حوله ولا تبعد عنه ، فلا اسهاب ولا استطراد بل عرض موجز واضح مركز .

وكل من يكتب للاذاعة يفكر كثيراً في اسلوبه الذي ينبغي ان تكون كلماته جميلة الجرس ، عذبة الوقع على الاذن ، لان السامع ، قبل ان يتلقى معناها ، تقع في اذنه موسيقى الالفاظ ، فاما ان يطرب فتكون باباً مشرعاً للمعاني التي ترافقها ، وإما ان ينفر فتكون سداً منيعاً بين هذه المعاني وبين عقل السامع ، الذي لا يلبث ان يتخلص من المتحدث مرة واحدة بأن يدير زر الراديو الى محطة اخرى ، اكثر ترفيهاً واكثر جذباً.

وللاذاعة ، في ناحية الموسيقى ، اثر اخر في الادب الحديث ، فهذا الشعر الذي يتغنى به . والذي لم يكن ليبلغ آذان الجمهور لولا ان اتيح له من يلحنه ومن يعزفه ومن يغنيه . وهو ، كالنثر الذى تتخلله الموسيقى ، مدين للاذاعة في نشره وترغيب الناس فيه لما يأتيهم على راحة من الفن الجميل والصوت الساحر والموسيقى المطربة .

غير ان الأحاديث التي تذاع ، انما كتبت للأذاعه اولاً وروعي في كتابتها وضع المستمع قبل كل شيء ، فلما نشرت في كتب ، اصبح من الضروري ان يراعى في نشرها وضع القاريء الذي يملك وسائل التأمل والتحقيق والمناقشة اكثر مما يملك السامع . وهكذا وجد القاريء نفسه ازاء خضم من الكتب تعرض عليه ادباً سريعاً خفيفاً ، كتب ليلقى إلقاء هيناً ، ولم يكتب ليدون ويصبح ميسراً للتأمل والمراجعة ، ولا ريب ان الاديب هو المسؤول إذ ألبس احاديثه زي المقالات ، فجاءت متنكرة لا تتلاءم مع ثوبها الجديد .

وإن شطراً كبيراً من الأدب الذي ينشر في هذه الايام ارادته محطات الاذاعة خفيفاً على القلب سائغاً في الاذن ، فأصبح حين جعله أصحابه في كتب ، سريعاً سطحياً مبتوراً ! والغريب ان بعض الكتاب يتركون عند نشر أحاديثهم ، بعض الكلمات التي يعتذرون فيها إلى السامعين ، بان الوقت هو الذي ضيق عليهم مجال القول ! ولكن القاريء ما اسرع ما يقبض على المسؤول عن عيوب هذا الادب : الوقت ام الاذاعة ام الكاتب !

والصحافة الأدبية ، بدورها تعمل عملاً حديثاً في احياء الوان من الأدب ، واخماد الوان اخرى ، على انني سأعود اليها قريباً في الحديث عن مجلاتنا الأدبية ، همومها وقضاياها ، واثرها في الادب العربي المعاصر .

●

والبيئة التي تضم هذه المؤسسات الفكرية ، تهمس شيئاً وتجهر بغيره . تجهر بأن « الاديب خالد ، وبلدنا موطن الاشعاع ، وفي ارضنا وسمائنا ونفوسنا قوى مبدعة تكاد تبلغ مرتبة الآلهة فيما تبدع » .

هذا الكلام يحاضر به ، وينشر في الصحف ، ويبث في

الاثير . وفي قاعات جامعاتنا ومدارسنا يقول المدرس : ان الاديب مرآة الامة ، والشاعر دليلها ، والمفكر قائدهـــا ، والفنان رائدها ، يقولها المدرس في زهو وفخر ، اليس هوابن عم لهؤلاء جميعاً ؟

ثم تنقـــل الآذان همسات هي أقوى من الكلام المعلن وأعنف ، واشد ضجيجاً وأثراً : ان الادب لا يطعم صاحبه ، والشعر لا يكسوه ، ان الاديب غني في كل شيء ، وفقير الى شيء واحد : الى ان يؤمن لقمته من ادبه ! فاذا ما خـلا اديب الى ولده ساره قائلاً : « لا تخدعنّك يا بـــني مظاهر التكريم ومقالات الثناء ، توجه إليّ في كل مناسبـة ، فلولا ان جدّك ووالدي ، ترك لي شيئاً أساعد نفسي به ، لكنت وكنت . حذار يا بني ان تغوص في شقاء الادب كما غاص أبوك ! . . » ثم يضيف : « انظر الى ادبائنا جميعـــاً : فأمين محام ، ورئيف مدرس ، وجورج طبيب ، والياس موظف ، اذا شاركوا بين الادب وغيره في حياتهم فلأنهم عرفوا ان الادب لا يطعم خبزاً . ! »

إن هذه الهمسات الخافتة الحادة في آن واحد ، تلعب في مستقبل الادب دوراً بعيداً ، فتدفع الموهوب الى اليأس من مواهبه ، او تدفعه الى ازدواج العمل ، فيجمـع بين الادب وبين مهنة من المهن تملأ فمه ، ولا يلبث ان يصبح الادب عنده على مواعيد قليلة متباعدة ، اذا سمحت له مهنته او تركت له وقتاً .

ومن أجل ان تزول هـــذه الهمسات التي تقلق مستقبل الادب والفن عندنا ، ينبغي ان تسير معاملتنا المعنوية للاديب ، مع معاملتنا المادية ، جنباً الى جنب ، فهذا نابغ ، والنابـغ يكافأ بالكلام والوسام ، ويكافأ ايضاً بما يساوي نبوغه ونتاجه من منصب او مال .

ولعلنا نشهد ، قريباً ، أدباء يرفه عنهم قلمهم ، ويغنيهم في عالم المادة ، بقدر ما يرفه قلمهم عن شعبهم ويغنيـه ، وعندئذ تزول عن بعض الشفاه تلك الوشوشة التي أصبحت تعبيراً حديثاً لشفقة قديمة اعترت بعضهم إذ قال عن احد الخالدين : « مسكين ، أدركته حرفة الادب ! » .

●

ويرى بعض ادبائنا ان على الدولة واجباً نحو الادب والادباء .

غير ان لكل شيء ثمناً عند الدولة ، وخاصة اذا كان هذا الشيء يتصل بالادب ، فاذا رعت الدولة الادب وانفقت عليه بعض الانفاق طالبته بأن يبيع نفسه لها ، واذن فقد وقع القلم في أسر هو في غنى عنه .

فمن الخير ان يبقى الادب بعيداً عن أغلال الدولة ، يرى الى اهوائها من بعيد ، ليستطيع ان ينقدها ويوجه رجالها الى الطريق في حرية طلقة ، وكرامة يحفظ بها وجوده .

والادب بخير وعافية ما كفت الدولة شرّها عنه ، وهذا جل ما يطلبه الادب من الدولة ، فاذا أبت الا احتكاكاً به وتضييقاً عليه ، فلن تكون العاقبة الا خيراً للادب ايضـاً ، فقد احتبس الادب في عصور المشادة والاضطهاد لينطلق بعدها قوياً عنيفاً كاسحاً ، أقوى مما كان في عهود الطمأنينة . وما نسمعه في هذه الايام من كبت وكـم وخنق ، ليس أكثر من تأجيل زمني محدود لظهور الادب الخارج الى النور .

●

فهذه البيئة التي تحيط بالاديب ، وما فيها من قراء ونقاد وناشرين ، وحكام يحسنون التقدير او لا يحسنون ، ومؤسسات تشجع ، وندوات تذكي لهب العقول ، وإذاعة تعنى بألوان دون غيرها ، وصحافة تستقيم وتنحرف . . . هذه البيئة الخارجية حافلة بالحوافز التي تؤرق على الاديب راحته ، فلا تدعه الا وقد استوحى منها مخلوقاً جديداً جميلاً ، يحبو عـلى الورق ، فيه عناصر الكائن الحي كلها ، وفيه قوى تدفع شعوباً الى الحياة !

•

بهيج عثمان

صدر حديثاً

مرة في العمر

مجموعة قصص نضالية

بقلم

الاستاذ محمد سعيد الجنيدي